آخر كلام

د. سليمان العطار

وهيبة وعبدالرحمن ... وأيام زمان !

الحاج عبدالرحمن « افندي » أحد ثلاثة قد حظوا بالتعليم في قريتنا من بين جيل العقد الاول والثاني من هذا القرن . أحد الثلاثة أنهى تعليمه العالي والآخر حصل على البكالوريا والثالث « أبو عوف » صاحبنا اليوم حصل على الابتدائية فقط . وعلى عظمة الحاصلين عليها في عصره فقد كان من المقدر ان يقل بريقها في وجود شهادة عليا وبكالوريا داخل حيز صغير وهو القرية والذي حدث ان الصورة كانت معكوسة فقد ألغت ابتدائيته الشهادتين الاعظم . لقد تحول الى قائد تقدمي للقرية دون وعي منه .

فقط كان مليئا بالحيوية المذهلة . نحيفا شاهق الطول معتدل القامة ، ذا شارب بالغ الرهافة ، صوته يجلجل حتى عندما يهمس . كان الناس يعرفون عنه ما يدور حتى في غرفة نومه . بسبب تدفق صوته كالسيل يقتحم آذان من يريد ومن لا يريد . عندما يغيب عن القرية تسيطر عليها سكينة عجيبة تسبق عاصفة حضوره . لم يكن صعبا على احد العثور عليه فخيوط صوته تحملك اليه .

أنسى القرية اسماء الناس والاشياء فلم يلجأ لنداء أحد باسمه فهذا زنكل وذاك زعتر والثالث الجحش والرابع نص نصيص او بجلص . لم يكن أحد يعرف من أين يجلب كل هذه الاسماء وكيف يحفظ لكل واحد اسمه الخاص به . يبدأ متلقي الاسم بالغضب ثم يزغزغ الحاج حواسه فيضحك ويقبل تلك السخرية ثم يعرف الجميع الاسم الجديد وينادون صاحبه به .

لقد هز كل تقاليد القرية ابتداء من قداسة الاسماء وانتهاء بسيطرة منظومة من العادات لم يقبلها الحاج وتبعه الجميع في افتتان بما يعمل . لقد غير عمارة البيت في القرية باستخدام نفس المواد الخام ونفس الخبرات فصار بهيجا وصحيا لدرجة ان الاعجاب بافكاره المعمارية بعد الاستمتاع بنتائجها تحول الى منافسة في ابتكار أفكار جديدة وتطوير نموذجه .

كان يكره مجتمع الرجال فيبحث عن تجمعات المسامرة النسائية ويقتحمها .. لم يشك أحد في سلوكه ولم يكن هناك ما يدعو الى الشك في كل تركيبته الشخصية .. فتحولت صداقته لنساء القرية الى بلسم يعالج كل المشاكل العائلية ولجأ اليه الجميع ليأسو جراح خلافاتهم .. أكثر من ذلك بدأ الرجال يختلطون بالنساء حتى ان القرية كانت تجتمع في ميدانها الكبير رجالا ونساء دون حرج ودون اي مساس بالقيم او الاحترام المتبادل .

وعندما استطاعت القرية ان تنشيء مدرسة بفضل مساومة الحاج عبدالرحمن لمرشح مجلس النواب كانت مدرسة مختلطة واستقبلها الناس دون غضاضة بل بترحيب منح بنات القرية فرصة متساوية في التعليم مع الاولاد .

جانب آخر من جوانب الحاج هو ان القرية كان يولد الرجل فيها ويموت دون ان يغادرها .. الحاج كان يسافر كثيرا للتنزه داعيا أفرادا من القرية معه . أحب الناس السفر . كان يقرأ الجريدة على مصطبته وحوله جمهرة يستمعون ثم يتناقشون وعندما اخترعوا الراديو . وقبله الجرامفون كان يضعهما على مصطبته أمام البيت فيتجمع حوله الناس .

تزوج مرارا .. كل زوجاته من خارج القرية يأتين بعادات من المدينة .. لم يستمر زواج أكثر من عام .. لا تحمل المرأة فيطلقها .. أكد الاطباء انه ليس عقيما .. اخيرا تزوج ممرضة اسمها الحاجة وهيبة . جمالها يفوق الوصف .. شفافية جلد ودقة ملامح وعود زان ملفوف ومنحوت .. بفضلها أحبت القرية الممرضات .. لم تشعر بالغيرة من حبه لمخالطة النساء - كما فعلت زوجاته السابقات - بل كانت تدعو النساء الى بيتها في جلسات سمر متوالية .

أحبها الحاج « أبو عوف » فتنازل عن فكرة الانجاب ولأول مرة في قريتنا - وربما في القرى العربية - تقوم اسرة بتبني طفلة وطفل يتيمين وباجراءات قانونية .. فزع الناس من صنيعهما ولكن بعد نجاح تجربتهما وجد كثير من الايتام آباءا يتبنونهم .. أرسل ابناءه المخترعين الى المدرسة فأرسل الناس أبناءهم الحقيقين اليها .

ببطء شديد كان التمدين يسري في جسم القرية . واذا أخذنا بفكرة دكتور زكي نجيب محمود في ان العرب في تقدمهم او تأخرهم يحتذون نموذجاً بشرياً كمثل أعلى ولا يحتذون فكرة مثالية ، فان الحاج عبدالرحمن كان قد صار نموذجا للتقدم ومثلا أعلى احتذته القرية مع انه لم يحتذ اي مثال .. فلماذا لا نحول هذه النماذج الى أفكار ؟!

الحاج عبدالرحمن نفسه - أطال الله عمره - بعد فقدان حنان الحاجة وهيبة لموتها .. يقول انه لم يفقدها لانها كانت فكرة وأنا رغم أن « أبا عوف » صار لي فكرة فاني افتقده وافتقد جرأته في التغيير سعياً وراء الخير .

بحرين

طبع في المؤسسة العربية للطباعة والنشر - البـــــــــــــ